نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني،

ومفاهيم البنية في الاصطلاح النقدي البنيوي .

أ . سمية الهادي⋆

1 ـ مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني :

تعد نظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) استكمالا لميدان الحدث البياني التي تبلورت معالمه الأولى على يد الجاحظ (ت255هـ) في كتابه (البيان والتبيين) ؛ مع الاختلاف في المنطلقات والإجراءات . وقد استطاعت هذه النظرية أن تمتلك مقومات استمرارها، عندما زاوجت بين علم البلاغة، وعلم النحو . ولقد تعددت مفاهيم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وفق المواقف النقدية المبثوثة بين حنايا كتابه (دلائل الإعجاز) . وتبلوت فكرة النظم لدى الجرجاني حين بحث في مكامن الإجاز القرآني . ففي الوقت الذي قال فيه البعض بأن السر في اللفظ، وأشار البعض الآخر إلى المعاني، وأرجع فريق ثالث الإعجاز إلى مبدإ الصرفة، رأى الجرجاني بأن بيان القرآن لا يعود لواحدة من تلك الأوجه، وإنما يكمن الأمر في طريقة نظمه . ومن هنا انطلق في شرح تصوره للنظم، فيقول : =واعلم أن ليس النظمُ إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علمُ النّحو، وتعملَ على قوانينه وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَهُ التي نُهِجَتْ؛ فلا تَزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسِمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيء منها . وذلك أنَّا لا نعلمُ شيئًا يبتَغيهِ النَّاظِمُ بنظمه غير أنْ ينظرَ في وجوهِ كلِّ بابٍ وفروقه.+(1)

فهناك إصرار على ضرورة تبني علم النحو الذي هو عبارة عن قوانين تعمل على تنظيم الكلام على الصورة التي تقبل بها اللغة التي تمتلك خاصية جمعية . وعد النظم بما له من آليات، وقواعد تضبطه هو الوسيلة لتشكيل البيان . فـ =هذا هو السَّبيل، فلستُ بواجِدٍ شيئًا يرجعُ

⋆ جامعة المسيلة .

(1) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، تحقيق : محمد التُنْجي، دار الكتاب العربي، ط2، 1997، بيروت، ص77 .

صوابُه إن كان صوابًا، وخطؤهُ إن كان خطأً إلى النَّظم، ويدخلُ تحت هذا الاسم، إلا وهو معنًى من معاني النحوِ قد أُصيبَ به موضعُهُ، ووُضعَ في حقِّه، أو عُومِلَ بخلاف هذه المعاملة، فأُزيل عن موضعه، واستُعمِلَ في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلامًا قد وُصِفَ بصحَّة نظمٍ أو فساده، أو وُصِف بمزيَّةٍ وفضلٍ فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحَّةِ، وذلك الفسادِ، وتلك المزيَّة، وذلك الفضلِ إلى معاني النَّحو وأحكامه، ووجدتَهُ يَدخُل في أصلٍ من أصوله، ويتَّصل بباب من أبوابه.+(1) .

فالمزية في حسن التأليف والتركيب، وهذا من شأنه الارتقاء بالمعاني . وذلك هو السبيل إلى بلوغ مراتب الحسن والجمال الذي تطرب له النفس، ويعلق بالأفئدة . =وإذ قد عرفتَ ذلك فاعمدْ إلى ما تواصَفوه بالحُسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النَّظم، خصوصًا دون غيره ممَّا لا يُستحسنُ له الشِّعرُ أو غير الشِّعر من معنًى لطيفٍ أو حكمة أو أدبٍ أو استعارة أو تجنيس، أو غير ذلك ممَّا لا يدخل في النَّظم . وتأمَّله، فإذا رأيتك قد ارتحتَ واهتززتَ واستحسنتَ فانظُرْ إلى حركات الأريَحِيَّة ممَّ كانت؟ وعند ماذا ظهرت؟ فإنّك ترى عيانًا أنَّ الذي قلتُ لك كما قلت.+(2) . وأمثلة ذلك ما أورده الجرجاني من أبيات للبحتري في المدح، إذ أن مواطن الإبداع تكمن في حسن توظيف التقديم والتأخير، واعتماد، العطف، وتكرار بعض الأحرف مما قد يزيد المعنى لطفا واستحسانا في الأنفس . يقول البحتري :

=بلونا ضرائبَ من قد نرى ... فما إن رأينا لِفتحٍ ضريبا
هوَ المرءُ أبدتْ له الحادثا ... تُ عزمًا وشيكاً ورأياً صليبا
تنقّل في خُلقَي سُؤْدُدٍ ... سماحا مُرجَّى وبأساً مَهيبا
فكالسَّيفِ إن جئتَهُ صارخا ... وكالبحرِ إنْ جئتَه مستثيبا

فإذا رأيتها قد راقتك، وكَثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعُد فانظر في السَّبب، واستقص في النظر؛ فإنّك تعلم ضرورةً أن ليس إلاّ أنّه قدَّم وأخّر، وعرّف ونكّر، وحذف وأضمرَ، وأعاد وكرّر، وتوخّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النّحو،

(1) المرجع نفسه، ص78
(2) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص79 .

فأصاب في ذلك كلّه، ثمّ لطُف موضع صوابه، وأتى مأتًى يوجب الفضيلة . أفلا ترى أنّ أوّلَ شيء يروقك منها قوله : =هو المرء أبدت له الحادثات+، ثم قوله : =تنقل في خُلُقَي سُؤددٍ+ بتنكير السؤدد، واضافة الخلقين إليه . ثم قوله : =فكالسيف+، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ لأن المعنى : لا محالةَ فهو كالسيف . ثم تكريره الكاف في قوله : =وكالبحر+، ثم أن قرن إلى كلٍّ واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه . ثم أن أخرج من كلّ واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله =صارخا+ هناك و=مستثيبا+ هاهنا . لا ترى حسنا تنسبُه إلى النّظم ليس سببُه ما عدَدتُ، أو ما هو في حكم ما عددت، فاعرف ذلك.+[1] .

وإذا عرفنا أن النظم مداره حسن التأليف بين الكلمات وفق قوانين النحو، والأغراض التي يوضع من أجلها الكلام، تكون المزية في المواقع التي توضع فيها الكلمة رفقة كلمة أخرى+ وإذ قد عرفتَ أن مَدارَ أمرِ النّظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أنّ الفروقَ والوجوه كثيرةٌ، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادًا بعدها . ثم اعلم أن ليست المزيةُ بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض . تفسير هذا أنه ليس إذا راقك التنكير في =سؤدد+ من قوله : =تنقل في خلقي سؤدد+، وفي =دهر+ من قوله : =فلو إذ نبا دهر+ فإنه يجب أن يروقك أبدا وفي كل شيء. . .. . بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤمُّ.+[2] . ومدار الأمر هنا يصبح كالأصباغ التي تعمل بها الصور والنقوش، وفي هذا يقول الجرجاني :+ وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمَلُ منها الصّور والنقوشُ . فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخيُّر والتدبُّر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها، ومقاديرها، وكيفية مزجه لها، وترتيبه

(1) المرجع نفسه، ص80 .
(2) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص82 .

إيّاها، إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه، فجاء من أجل ذلك أعجبَ، وصورته أغربَ . كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو، ووجوهه التي علمتَ أنها مَحْصولُ النظم.+(1) .

ويكتمل النظم حين تكتمل القطعة كلها دون تجزيء أو تقطيع =واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزيَّة في نظمه والحسن كالأجزاء من الصِّبغ تتلاحق، وينظم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين . فأنت لذلك لا تُكبرُ شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحذق والأستاذيّة، وسعة الذّرع، وشدة المُنّةِ حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عدة أبيات+ (2) .

كما أن مدار الأمر يصبح أيضا ما يصنعه الباني من إتقان، وتفنن حين يختار بين اللبنة والأخرى، ويضع كل واحدة الموضع اللائق، فيأتي البناء متسقا ليس فيه نشاز . ويقول في ذلك =واعلم أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر، ويغمُضَ المسلكُ في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدَّ ارتباط ثان منها بأولَ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني؛ يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك . نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين+ (3) . واستكمالا لمزية النظم وليس مزية اللفظ، يورد الجرجاني مثالا بيت من الشعر لابن المعتز، ويقول في ذلك : =واعلم أن هذا - أعني الفرق بين أن تكون المزيّة في اللفظ، وبين أن تكون في النظم - باب يكثر فيه الغلط ترى مُستحسنا قد أخطأ بالاستحسان موضعَه، فينحلُ اللفظ ما ليس له، ولا تزال ترى الشبهةَ قد دخلت عليك في الكلام، قد حسن من لفظه ونظمه، فظننت أن حسنه ذلك كلَّه للَّفظ منه دون النظم . مثال ذلك أن تنظر إلى قول ابن المعتز :

وإنّي على إشفاق عيني من العدا لَتَجمَحُ منّي نظرةٌ ثمَّ أُطرقُ

فترى أنّ هذه الطُّلاوةَ، وهذا الظَّرفَ إنما هو لأن جعل النظرَ

(1) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
(2) المرجع نفسه، ص83 .
(3) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص87 .

يجمحُ وليس هو لذلك، بل لأن قال في أول البيت : =وإني+، حتى دخل اللام في قوله : =لَتجمَحُ+ . ثم قوله : =مني+ . ثم لأنْ قال : =نظرة+ ولم يقل : النظر مثلا . ثم لمكان =ثم+ في قوله : =ثم أُطرق . وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائفَ، وهي اعتراضهُ بين اسم إن وخبرها بقوله : =على اشفاق عيني من العدا+.+(1) .

2 ـ مفهوم البنية :

لم يستعمل (دو سوسير Saussure) كلمة (بنية) في كتابه =محاضرات في علم اللغة العام+ بل كان يستعمل كلمة (نسق Système) . ورفض (ميشال فوكو Michel Foucault) أن يكون بنيويا؛ بل إنه حذف هذه الكلمة من كتابه (الكلمات والأشياء) بكامله . وأشار (جوناثان كيلر Jonathan Culler) في واحدة من محاضراته إلى أن كلمة (البنيوية) فقدت جدواها بعد أن صارت تشير إلى مجموعة من العلوم منذ وجد (جون بياجي Jean Piaget) في كتابه (البنيوية Le Structuralisme) (2) .

ويعرف جورج مونان (Georges Mounin) اللساني، البنية في معجمه (Dictionnaire de la linguistique) بقوله : البنية اللسانية هي فكرة مجردة لا تضبط الوقائع اللسانية إلا عبر شبكة علاقات التقابل المتميزة بين العناصر التي تسمح للغة بممارسة وظيفتها الجوهرية، وهي وظيفة التواصل (3) . وكلمة (Structure) في اللغات الأجنبية مشتقة من الفعل اللاتيني (Struere) بمعنى : يبني أو يشيد . وحين تكون للشيء بنية (في اللغات الأوربية) ؛ فإن معنى هذا أنه ليس بشيء غير منتظم، أو عديم الشكل (Amorphe)، بل هو موضوع منتظم، له صورته الخاصة، ووحدته الذاتية . (4) .

ولو أننا خرجنا من دائرة الظواهر اللغوية، لوجدنا أن البنية هي نظام من العلاقات الثابتة الكامنة خلف بعض التغيرات ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن كل علم ينبغي أن يكون بنيويا (5) .

---

(1) المرجع نفسه، ص91 .
(2) عبد الله إبراهيم وآخرون : معرفة الآخر . المركز الثقافي العربي . 1990 . ص39 - 40 .
(3) Georges Mounin : Dictionnaire de la linguistique , Universitaires de france,1974, P307.
(4) زكريا إبراهيم : مشكلة البنية . أو أضواء على البنيوية . مكتبة مصر . ص29
(5) المرجع نفسه . ص37 .

=ويتميز الاستخدام القديم لكلمة بنية في اللغات الأوربية بالوضوح فقد كانت تدل على الشكل الذي يشيد به مبنى ما، ثم ما لبث أن اتسعت لتشمل الطريقة التي تتكيف بها الأجزاء لتكون كلا ما سواء كان جسما حيا أو معدنيا أو قولا لغويا، وتضيف بعض المعاجم الأوربية فكرة التضامن بين الأجزاء، وهي فكرة منظور إليها ضمنا في التعريف الأول لأن المبنى ينهار إن لم يكن هناك تضامن بين أجزائه، وعلى هذا الأساس فإن البنية هي ما يكشف عنها التحليل الداخلي لكل ما؛ والعناصر والعلاقات القائمة بينها، والنظام الذي تتخذه.+(1) .

ويشترك مختلف نقاد البنيوية في أن مجالهم الذي لا يحيدون عنه هو البنية، على الرغم من تعدد مفاهيمها عندهم، وتطورها من حين إلى آخر، نتيجة حصول المتغيرات المعرفية . =لقد شكلت أفكار سوسير - على نحو خاص - أساسا معرفيا وفكريا يمثل الانطلاق للنظريات البنيوية خصوصا في اعتقاده بأن أية دراسة لغوية لا بد أن تكشف عن وجود نسق كامن وراء أية ممارسة إنشائية دالة دون الاعتماد على التلفظ الفردي.+(2) .

وعدت البحوث في البنية وأنساقها أفضل إنجازات العصر؛ نظرا لما حملته تلك البحوث من أفكار منهجية فعالة وصارمة، تنطلق من الوقائع، وتصل إلى الغايات، والنتائج المرجوة . و=إن ما نروم الحديث عنه في علاقة المنطق والتفكير الرياضي الحديث بالبنوية جانب الخصوبة والإبداع في المنهج الرياضي المعاصر ومرونته وقابليته للتطبيق على جميع نشاطات العقل الإنساني، لهذا كان له سلطان على جميع المعارف مما أهله لأن يكون على قائمة العلوم بجدارة واستحقاق وبدون منازع؛ ولولا هذا العلم الذي يستنبط ولا يدرك ما كان لليفي ستراوس أن يهتدي إلى دراسة القرابة وقواعد الزواج في المجتمعات المفتقرة إلى الكتابة على نحو لم يسبقه إليه أحد من الأنثروبولوجيين.+(3) .

---

(1) صلاح فضل : نظرية البنائية . في النقد الأدبي . ط1 . دار الشروق . 1998 . ص120 - 121 .

(2) رامان سلدن : النظريات الأدبية المعاصرة . ترجمة : جابر عصفور . دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة 1998 . ص92 - 93 .

(3) أحمد يوسف : القراءة النسيقية . سلطة البنية ووهم المحايثة . ط1 . منشورات الاختلاف .

والأدب هو أولا عمل لغوي، والبنيوية من جانبها، هي، بامتياز، نظرية لسانية (1). وإن اللقاء المحتمل بينهما كان بشكل جلي مؤدى على الأساس اللساني: الأصوات، الأشكال، الكلمات والجمل التي تؤسس الموضوع المشترك (Commun) عند اللساني وعالم فقه اللغة (Philologue) (2). والطريقة البنيوية تُؤَسس في الآن الذي نجد فيه الرسالة داخل النسق (Code)، تستخرج عن طريق تحليل البنية المحايثة (Immanente) (3). وفي اتساع رقعة البحوث الحداثية التي تعلي من شأن المصطلح النقدي، الذي يمثل خلاصة المعرفة، ونتيجتها الحتمية فـ=إن هذه الكلمة (البنية) تبدو هنا متفقة بين الاتجاهات المختلفة على جوهرها على الأساس الموضوعي، وتستعمل من قبل الناقد أو الباحث لضرورة أو لفلسفة معينة، مصدرها النزعة البنيوية+ (4).

إن البنية تعتمد أكثر ما تعتمد على أنظمتها اللغوية الخاصة بسياقها اللغوي. ففي قوله تعالى: ×طَلۡعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ÷ [الصافات 65]، لا نكون هنا بحاجة إلى الوجود العيني للشياطين كي ننفعل بهذه الآية؛ فالجملة تقوم بتأسيس انفعالها في نفس المتلقي عن طريق طاقتها التخييلية، الذي هو التحكم الذاتي في لغة بياجي (5).

وفي مجال التعريف بمصطلح البنية، باعتبارها أساس المدرسة البنيوية. يقول إميل بنفنست (Benveniste): لقد تم تأكيد مبدإ البنية كموضوع للبحث قبل سنة 1930 على يد مجموعة صغيرة من اللسانيين الذين تطوعوا للوقوف ضد لسانيات كانت تفكك اللسان إلى عناصر معزولة (Isolés)، وتنشغل بتتبع التغيرات الطارئة عليه. لقد أطلقنا على (سوسير)، وبحق، رائد (Précurseur) البنيوية المعاصرة، وهو كذلك بالتأكيد إلى حد ما. ويحسن بنا أن نشير إلى أن (سوسير) لم يوظف مطلقا، وبأي معنى من المعاني كلمة (بنية)، ففي نظره المفهوم

الجزائر 2007. ص55.

(1) Gérard Genette : Figure I . Edition du Seuil . P149 .

(2) Ibid . P149 .

(3) Ibid . P150 .

(4) سمير حجازي: المتقن. معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة. دار الراتب الجامعية. بيروت (دت). ص77

(5) عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير. من البنيوية إلى التشريحية. ط3. دار سعاد الصباح. 1993. ص32.

الجوهري هو النظام (Système) [1] .

وفي خضم الخصومة المعرفية بين بعض المدارس الغربية حول عديد المناحي الفلسفية، يرى رينيه ويليك أن =واقعة الاعتراف ببنية معينة على أنها =عمل فني+ تتضمن حكم قيمة . ويكمن خطأ الظاهرتية الصرفة في الافتراض بأن مثل هذا التفكيك ممكن، وبإن القيم مفروضة بشكل فوقي على البنية وبأنها تلصق على البنية أو فيها+ [2] .

ويبقى التصور الشكلاني لمبدأ البنية في ظل الاعتقاد الصارخ بأن لا شيء يتمظهر إلا عبر الشكل، ومن ثم يغدو =البحث في البنية اللفظية هو الهدف الممتاز للسانيات المعاصرة بأنواعها كافة، وإن المبادئ الرئيسية لمثل هذا المقترب البنيوي (أو بتعبير آخر المقترب الشرعي) للغة . تلك المبادئ المشتركة لكل أشكال هذا البحث، يمكن أن تُحدد كافكار موحدة عن الثبات والنسبية+ [3] .

ولقد ظهرت العديد من الشخصيات النقدية الغربية في رحاب المدرسة البنيوية، فألفت جملة من الأعمال النقدية كان لها الدور الكبير في بلورة توجه هذه المدرسة، ومن أمثلة ذلك (رولان بارث Roland Barthes)، وهو الذي أشار مرة إلى أن البنيوية في معناها الأخص هي محاولة نقل النموذج اللغوي إلى حقول ثقافية أخرى . وسبق (كلود ليفي ستراوس Claude Lévi Strauss) أن قال : إن علم الفونولوجيا يمكن أن يؤدي لعلوم الإنسان ما أدته الرياضيات للفيزياء الحديثة . هذا الارتماء في أحضان النموذج اللغوي يجعلنا نتساءل : لماذا ينبغي قياس النماذج الثقافية والاجتماعية على النماذج اللغوية؟ وردا على السؤال يجيب (جوناثان كيلر) بأن فكرة الاستفادة من علم اللغة بدراسته ظواهر ثقافية أخرى تستند إلى اعتقادين أساسيين : الأول أن الظواهر الاجتماعية والثقافية ليست مجرد موضوعات أو أحداث مادية، بل هي موضوعات أو أحداث ذات معنى، وبالتالي فهي إشارات . والأمر

---

(1) Emile Benveniste : Problèmes de linguistique générale . I . Edition Gallimard . 1974 . P93

(2) رينيه ويليك . وأوستن وارين : نظرية الأدب . ت : محي الدين صبحي . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . 1987 ص163 .

(3) رومان ياكبسون : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة . ترجمة : علي حاكم صالح وحسن ناظم . ط1 . المركز الثقافي العربي . المغرب2002 . ص16 - 17 .

الثاني، هو أن الظواهر ليست جواهر أو ماهيات قائمة في ذاتها، بل إنها محددة بشبكة من العلائق الداخلية والخارجية . وإذا كانت الأفعال الإنسانية ذات معنى، فلا بد أن يحكمها نظام تحتي من التميزات والأعراف التي تجعل المعنى أمرا ممكنا (1) .

وهذا الأمر أشار إليه (دو سوسير) عندما قال بأنه يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في المجتمع، وله علاقة بعلم النفس العام، نسميه السيميولوجيا .

وقبل أن تظهر البنيوية في فرنسا، عرفت أمريكا تيارا عرف باسم (علم اللغة البنيوي) . وقد شهد هذا التيار ازدهارا على يد عالمين أمريكيين كلاهما كان مهتما بعلم النفس، هما : (إدوارد سابير Edward Sapir) و(بلومفيلدBloomfield) . إذ يرى (سابير) في الثقافة جهازا سيميائيا، في ظل مرجعية اللغة . واللغة ليست التعبير والقول، بل إنها البنية التي تتحكم في التعبير، وتضفي عليه نماذجها . وهكذا تتدخل اللغة في ترتيب وظائف الحواس، والعلائق، والأنظمة والأعراف . وهي الفرضية التي ستتبناها البنيوية الفرنسية فيما بعد .

وثمة تأثير كبير في المدرسة البنيوية من قبل كلود ليفي ستروس، في دراسته لفكرة القرابة، ومختلف الأنظمة البنائية التي تتحكم فيه . ولا مناص من القول بأن كثيرا من المدارس تأخذ من بعضها البعض، وتمارس لعبة التخصيب والإثراء =ولقد كانت البنيوية عند أقطابها المؤسسين قائمة على تمثل مقولتي اللاوعي عند فرويد، والنسق أو النظام عند سوسير، ويتضح ذلك عند كلود ليفي ستراوس الذي كان يعتقد أن النشاط اللاشعوري للفكر يكمن في بعض أشكال مضمون ما مثلما تظهر في اللغة، فيكفي الوصول إلى بنية لا شعورية كامنة في كل نظام عام أو في كل عادة للحصول على مبدأ تفسير صحيح بالنسبة لأنظمة عامة أخرى وعادات أخرى بشرط المضي في التحليل إلى بعد كاف+ (2) .

(1) عبد الله إبراهيم وآخرون : معرفة الآخر . ص41 .
(2) كلود ليفي ستراوس : الانثروبولوجية البنيوية . ترجمة مصطفى صالح . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق 1977 . ص40 .

3 - بين مفهوم النظم، ومفهوم البنية :

تظهر القيمة المعرفية لكل أمة من الأمم في لغتها، ودقة مصطلحاتها، التي تمنحها عنوان التحضر . وعلى هذا الأمر جاءت حضارة الغرب متلبسة بنضج اللغة وحركيتها ونجاعتها، وقوة أدائها المصطلحي . وقد وفد هذا الأمر إلينا ونحن على ضعف ووهن لغوي شديد، جعلنا نتخبط في زخم معرفي يحتاج إلى ضبط، وتنظيم، ودقة وإحكام . ولا نزال إلى يومنا هذا وسط هذه الفوضى الكبيرة . ففي مجال اللسانيات، استطاع كثير من الباحثين العرب الاقتراب من كل النظريات اللسانية التي نشأت في الغرب، انطلاقا من دوسوسير إلى آخر اللسانيين . وهناك من أراد أن يؤسس لنظرية عربية لسانية تحاول الارتباط بالتراث العربي والانفتاح على منجزات الغرب . والسبب في ذلك هو وجود كثير من الفكر اللساني العربي القديم الذي يتشابه بشكل أو بآخر مع اللسانيات والفكر النقدي الغربي الحديث . لذلك نجد باحثا مثل عبد العزيز حمودة - وغيره - يحاول غربلة التراث العربي، والغوص في الفكر النقدي الغربي من أجل إبراز القيمة المعرفية لتراثنا . ومن بين آرائه حول مفاهيم النقد اللساني والبنيوي، رأيه في النسق الذي أقرته الدراسات اللسانية الحديثة، يقول : =مفهوم النسق أو النظام كما يقدمه ناقد أمريكي مخضرم هو روبرت شولز . وفي هذا لن يكون هدفنا بأي حال من الأحوال تأسيس شرعية الحاضر، بل شرعية الماضي التراثي العربي، فالنسق أو النظامsystem، في المنظور الحديث بل البنيوي لا يضيف الكثير إلى مفهوم النظم كما تراتب النقاد العرب على شرحه قبل عبد القاهر الجرجاني وبعده.+(1)

ويكتب روبرت شولز في Structuralism in Literature في تعريف النسق من منظور بنيوي : =يجب أن نؤكد أن النسق اللغوي ليس وجودا محسوسا . فاللغة الانجليزية ليست في العالم أكثر من وجود قوانين الحركة في العالم . ولكي تكون موضوعا للدراسة يجب بناء لغة ما، أو نموذج لها، من شواهد الكلام الفردي . إن أهمية هذا المبدأ للدراسات البنيوية الأخرى باللغة . إن أي نظام إنساني لكي يصبح علما، يجب أن

(1) عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة . نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص226 .

ينتقل من الظواهر التي يسجلها إلى النسق الذي يحكمها، من الكلام إلى اللغة . وفي اللغة بالطبع لا معنى لأي تصوت بالنسبة لمتحدث ينقصه النسق اللغوي الذي يحكم معناه . وما يعنيه هذا بالنسبة للأدب بالغ الأهمية، إذ لا يمكن لمنطوق أدبي، لعمل أدبي، أن يكون له معنى إذا افتقدنا الإحساس بالنسق الأدبي الذي ينتمي إليه+.+(1) . وما يقابله في اللغة العربية حسب ما جاء به فكر الجرجاني في كتابه الثاني (أسرار البلاغة في علم البيان)، هي أن الألفاظ خارج النظام ليس لها البيان . يقول : =والألفاظ لا تفيد حتى تؤلَّف ضربا خاصا من التأليف، ويُعمَد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب . فلو أنّك عمدت إلى بيت شعرٍ أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتّفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

=منزل قفا ذكرى من نبك حبيب+ أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهذيان.+(2)

وهناك تقارب بين الجرجاني وشولز في أن النظام أو النسق هو الذي يعطي للفظ أو التصوت اللغوي قيمته . ويحاول عبد العزيز حمودة التعليق على هذه الفكرة مستعينا ببعض المصطلحات اللسانية من مثل اللغة والكلام، ويؤكد في حديثه عن النسق =مبدأين جوهريين لا يمكن المرور بهما مر الكرام، الأول، إن التصوت اللغوي لا معنى له من دون نسق يحكم علاقات وحداته، أي أن تحقق الدلالة أو المعنى لا يتم إلا بوجود نسق لغوي هو قانون الإرسال والتلقي الذي يتفق عليه المتلفظ والمستمع . الثاني ،. . .. هو كيفية تخليق النسق أو الوصول إليه ثم كيفية عمله . وفي هذا لا يختلف شولز عن جمهرة اللغويين في أسبقية الكلام parole على اللسان أو اللغةlangue . فالنسق يطور من نماذج الكلام الفردية، أو ما يسميه شولز =شواهد الكلام الفردي+ . ولكي يتحول ذلك

(1) المرجع نفسه . الصفحة نفسها .
(2) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص14 .

النسق إلى قانون عام له مصداقية العلم، يجب أن يتحول من الظواهر الفردية إلى اللغة . وبعد ذلك يطبق ذلك القانون العام على حالات الكلام الفردية قبل أن تتحقق دلالة التلفظ+ (1) ويعلق عبد العزيز حمودة على نص الجرجاني =فاللفظة مفردة، في رأي عبد القاهر، علامة تدل على شيء أو فكرة، ولكنها لا تحدث معنى مفيدا إلا داخل الجملة أو البنية اللغوية، وهو المعنى الذي لا يمكن الإفادة به =إلا بضم كلمة وبناء لفظة على لفظة++ (2) .

وجمال اللفظة وقبحها ـ مع تأكيد أسبقية الجاحظ على الجرجاني ـ خاضع للسياق التركيبي الذي وجدت فيه . فقد تكون اللفظة وحشية نابية، يكسبها التركيب والنظم رونقا وجمالا، وفي ذلك =يمضي الجرجاني ليؤكد أن نظرية النظم، وهي ترتكز على البنية اللغوية ككل، وهي البنية التي تحقق اللفظة داخلها فقط معنى مفيدا، أو تشترك في تحقيقه، بمعنى أدق، نظرية النظم هذه ترفض اللفظية واللفظيين الذين قالوا بدلالة اللفظة منفردة . وفي إشارة واضحة للجاحظ الذي أسس اللفظية، وتحدث عن الابتعاد عن اللفظة =الوحشية+ كشرط لجودة السبك، ينتقل عبد القاهر إلى المفاضلة بين لفظة وأخرى . فهذه المفاضلة بين لفظة وأخرى باعتبار واحدة مألوفة والأخرى وحشية أو نابية لا يجب أن تتم خارج البنية اللغوية، خارج البناء أو الضم أو النظم . فالذي يحدد فصاحة الكلمة =هو مكانها في النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها++ (3)

وهناك جانب آخر في الفكر اللساني الحديث يمكن أن يكون مجلا للمقارنة مع ما أنجزه الفكر اللغوي العربي القديم، وخصوصا مع الجرجاني، ويتمثل في : المحور الأفقي التتابعي والمحور الاستبدالي . فيطالعنا في هذا الشأن ما قاله في دلائل الإعجاز : =وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحةٌ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسنَ ملائمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا :

(1) عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة، ص227 .
(2) المرجع نفسه، ص237 .
(3) عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة، ص238 .

لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه : قلقة ونابيةٌ ومستكرهةٌ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكُّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبوِّ عن سوء التلاؤم . وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفِقا للتالية في مؤدّاها؟.+(1) . وهذا النص، وإن كان الغرض منه هو الرد على أنصار اللفظ الذين عدوه سبب البلاغة والبيان . إلا أنه يتماشى مع الطرح البنيوي الذي يولي أهمية لعلاقة اللفظة بما قبلها وما بعدها في شكل محور تتابعي يتشكل من قواعد النحو . ومحور آخر استبدالي يقره الجرجاني من خلال قدرة الشاعر على تلمس جمال لفظة دون سواها، مع اشتراكهما في المعنى ذاته، قائلا : =فينبغي أن يُنظَر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارًا وأمرًا ونهيًا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يُتَصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدلَّ على معناها الذي وُضعت من صاحبتها على ما هي موسومةٌ به، حتى يقالَ إنّ رجلا أدلّ على معناه من فرسٍ لما سُمِّي به . وحتى يُتَصوّر في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأً عنه، وأبين كشفا عن صورته من الآخر؟ فيكون =الليث+ مثلا أدلَّ على =السبع+ المعلوم من الأسد.+(2) .

فالنظم في نظر الجرجاني هو ما يكسب اللفظة قيمتها الدلالية من خلال هذا التركيب اللغوي الذي يشترط النسق، وحسن التأليف، =فقد اتضح إذا اتضاحا لا يدع للشّك مجالا أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة . وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلُّق له بصريح اللفظ . ومما يشهدُ لذلك أنك ترى الكلمة

(1) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص53 .
(2) المرجع نفسه، ص52 .

تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر+ (1)

وإذا كان الجرجاني يلخص النظم في مراعاة قواعد النحو؛ فإن البنيوية ترى ارتباط الوحدات المكونة للبنية يتم وفق علاقات نحوية، في نسق يتألف من ست مراحل، هي :

1- اختيار موقع الكلمة Word Order

2- التركيب Composition

3- الإلحاق Affixation

4- التعديل الداخلي لجذر الكلمة

5- التضعيف Reduplicatin

6- الفروق النبرية Acdentual differences (2)

وكذلك فعل الجرجاني في دلائل الإعجاز، في تقديمه تصورا للنظم، وارتباطه بقواعد النحو متمثلة في : التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والحذف، واللفظة وما يطرأ عليها من تغيرات قبل وبعد دخولها في سياق النظم .

(1) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص54 .
(2) ابراهيم محمود خليل : النقد الأدبي الحديث . من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ط1، 2003، ص 93 .